الاسلحة النارية

في الجيوش الاسلامية

ذكرت في مقال « المدنية العربية في صقلية » شيئاً عن النار التي تشتعل فوق الماء والثياب التي لا تحترق بالنار فرغبتم في أن أوافي قراء المقتطف الاغر بشيء من ذلك فاجابة لرغبتكم ارسل هذه الكلمة ملخصة من رسالة لي في تاريخ الجندية الاسلامية من الصدر الاول الى القرن العاشر الهجري

استعمل المسلمون النيران في حروبهم البحرية والبرية منذ عصر نهضتهم الحربية واشتهرت تسمية هذه النار بالنار اليونانية في لسان المؤرخين المحدثين على انها ليست الا اختراعاً شرقيًّا توصل بملكي اهتدى اليها وامرّ خبرها الى البيزنطيين وهم في اشد الحاجة لدفع هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها من انحاء دولتهم التي انتهك المسلمون حرمتها وقد كتموا سر استعمالها ليتفردوا بها ولكن تمكن العرب من معرفة ذلك فاستعملوا هذه النار وتفننوا في استعمالها اينما تفنن كما سترى

وقد اختلف كتابنا في الكلام على هذه النار . على ان محمد بن منكلي قال في كتابه [1] « وكانوا يرسلون النفط من انابيب تجعل في السفن وتعرف في اليونانية باسم (سيفونيه) وتسمى عند العرب بالزراقات تنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن ». فبيّن لنا حقيقة هذه النار. والنفط هو خلاصة القار البابلي ولهُ قوة يستلب بها النار فيستوقد منها وان لم يماسها ولونهُ ابيض ويكون منهُ الاسود

عرف القوم هذه النار وتفننوا بعدُ في استعمالها برًّا وبحراً فاتخذوا منها قدوراً لا تتوسع كثيراً اذا سميناها القنابل مجاراة للاستعمال العصري فكان فيها قنابل (قدور) النحاس كانت تسكب على مثال حجر المنجنيق مجوفة وعملاً (بندوا حد) ومواد اخرى ذكرها على اقدارها ولبسها الزردكاش صاحب الانيق [2] ومن قنابل

(١) وهو احد متقدمي الجند بمصر في دولة المماليك وكتابه هو الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر . ومنه نسخة خطية في خزانة العلامة احمد تيمور باشا تفضل بتمكيننا من الاطلاع عليها بتوسط استاذنا الشيخ حسن منصور فنتقدم جزيل الشكر لهما

(٢) كتاب الانيق في المجانيق ألفه شمس الملا منكلي بغا الشمسي الزردكاش « اي صانع الزرد » عام ٨٦٧ هجرية وهو في جملة كتب الاستاذ زكي باشا ماخوذًا بآلة التصوير في ١٠٩ لوحات بعضها مكرر وفيه وصف المنجنيق واجزائه وطريق صناعته وغير ذلك مما يصور غاية في الابداع

النحاس ما يكون على شكل صناديق تعرف بصناديق المحاسفة ويكون في جنبها مزراق نحاس ولهُ انابيب تنفذ اليهِ فيملأ الصندوق نفطاً ويجعل على رأس المزراق وردة لباد وتشعل ويرسل الصندوق بالمنجنيق فيشتعل منها وينفجر. ومنها قنابل الحجر: وتتخذ من حجر مدور ويجعل فيهِ اربعة خزائن وتملأ هذه الخزائن بلزاق مكون من نفط ومصطكى وغيرها الخ ما ذكرهُ صاحب الانيق. ومنها قنابل الزجاج: وهي قوارير تملأ من دهن يتركب من نفط مصعد — وهو الابيض — وكبريت وكندس . . . الخ ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فتلطخ المكان الذي تقع فيهِ ويؤتى بعد ذلك بحجر عليهِ مشاقة مرواة من النفط المطبوخ تشعل فيهِ النار ويرمى حيث وقعت القوارير فيلتهب المكان ولا ينطفىء حتى يصير رماداً

واتخذوا من تلك القوارير ما يماثل قنابل اليد — : وتكون من زجاج مدورة ذات عُرى تحشى بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور الخ وتجعل لها سلسلة فيشعلها الضارب ثم يرمي بها فيكسرها. وقد استعملت تلك القنابل اليدوية في القتال البري اواسط ايام الدولة العباسية استعملها ياقوت المتوفى لعماد الدولة بن بويه في حربهِ لهُ فقدم امام اصحابهِ رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط كما ترى ذلك في الكامل لابن الاثير في الجزء الثامن صفحة ٨٧ «من الطبعة الاهلية سنة ١٣٠٣ هـ»

وكان منها القنابل المضيئة: — وهي بندق يركب من كبريت رومي اسود وصمغ ودهن بلسان وقورة ومواد أخرى تبندق وتجفف فاذا أريد الرمي بها مسح بنفط مصعد — أبيض — مطبوخ وبذر عليها كبريت مسحوق فاذا رمي بها عن قوس صلبة شديدة اشتعلت ناراً بوقوعها في الهواء سواء كان ذلك في ليل أو نهار

ولا اطيل في وصف القنابل (القدور) وحسبنا أن نذكر منها ما استعملت فيهِ النار وان كان لهم غير ذلك انواع كثيرة بعضها لم يستعمل مثلهُ ولا ما يعمل عملهُ في الحروب حتى الآن كقنابل الازلاق: وهي قدور من الصابون اللين الذي يزلق الاقدام، أو قدور ملأى بالسدر والحطمة الرقيقين المخلوطين بدق الصابون يختم رأسها وتقذف على السفن البحرية فتتكسر فيها، ويرمى بعدها بقنابل فظيعة فكّر الاوربيون اخيراً فيها بماثلها شناعة ولم يستعملوهُ في الحرب وهي قنابل الميكروبات. وتجعل منهُ قدر من الفخار أكبر ما يكون وتوضع فيها حيات عناق وعقارب ويختم رأسها وترسل على المقاتلين بعد قنابل الازلاق السابقة وكانت تعرف عندهم بقدر

المركب فتكسر هذه القدور وينتشر ما فيها فيكل من لسعتهُ قتلتهُ ، ويزيد هول فعلها كونها في السفن الضيق المكان وحيلولة الماء . وكانت لهم قنابل تعمل عمل قنابل شرابنل : فتقشر الجلد عن اللحم وتحرقهُ ، تصنع من قدور مملوءة بمواد من نفط وغيره ، ذكرها باقدارها صاحب الآنيق ورسم القدر نفسها . واستعمل القوم من هذه النار مما يعمل عمل الالغام : — وذلك بوضع النفط على الارض ثم الاستطراد للاعداء حتى يظهر انهم انهزموا فيتبعونهم فاذا توسطوا النفط القوا فيهِ النار وهو سريع الالتهاب كما قدمنا فتحيط النار بالجند وتهلكهم (راجع ابن الاثير الجزء السابع صفحة ٦٠ من الطبعة المذكورة). وعلى ذكر الالغام نقول انهم كانوا يستعملون من الجسك ما هو اصل فكرة الاسلاك الشائكة فكانوا يتخذون حديداً مدبباً منهُ المثلث والمربع فكيفما وقع على الارض كان منهُ سنٌ مرتفعة ومنهُ المسدس ويكون منهُ ثلاث شوكات قائمة ، فاذا داسهُ جواد او انسان عطب . وكان ينثر حول الخنادق لتحصينها وتارة يجعل وراء الجيش منعاً للهزيمة اذ يحول بين الجند وبين الفرار

وعلى ذكر النار نقول انهم استعملوا من الدخان ما يعمل في العدو عمل الغازات الخانقة : — بتدخين الكبريت والخيف على مهب الريح حتى يفسد الهواء على العدو . واتخذوا فوق ذلك قنابل خانقة استعملوها في البر والبحر وكان بعضها يركب من أفيون وزرنيخ وبنج أزرق . . الخ وبعضها يملأ من النورة المدقوقة غير المطفأة (وهي مزيج من الكلس والزرنيخ) فتعمي بغبارها الابصار وتلتهب عليهم اذا تبددت . وقد تقذف القدور المملوءة بالكلس المطفى فيتصاعد غباره الى مناخير الجند وعيونهم فلا يستطيعون القتال . ونمسك القلم ثانية عن الاسهاب في شرح انواع القنابل عندهم اكتفاء بالكلام على النيران وخشية أن يظن القارىء بنا المغالاة فانا اصبحنا وقد فقدنا الثقة بانفسنا وجهلنا قدر سلفنا نرمي المحدثين عنهم بالشطط والاسراف . ولقد تمتع القوم في الحرب الاخيرة باستعمال هذه القنابل وعجبوا ودهشوا فليعجبوا لسبق آبائهم الى ذلك وقعودهم خاملين جاهلين حتى بأخبارها .

ولنعود الى سياق الحديث فنقول : تفنن القوم في استعمال النيران فأدخلوا استعمالها في الرماح والسهام والدبابيس فمن ذلك رمح يجعل في سنانهِ كلاّبان من الحديد وحلقة منهُ أيضاً ، ويلف السنان بلياد عليهِ مزيج من المواد المشتعلة ، وكذلك استعملوا السهام المذهبة والدبابيس ، وهذه الدبابيس آلات من حديد

ذات أضلاع يحملها الفرسان في السروج تحت ارجلهم ، ويتقاتلون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح وكانت تعرف أولاً بالعُمُد ، ثم سميت الدبابيس وواحدها دَبُّوس ، وادخل استعمال النار في تلك الدبابيس ايضاً

ولما استعملوا النار للهجوم اتخذوا لانفسهم العدة لاتقائها ، فاصطنعوا الثياب التي لا تحترق بالنار : — وهي ثياب تطلى من الداخل والخارج بمواد متخذة من النشادر والشب المصري والشب اليماني . . . . . ومواد اخرى . فاذا التهبت النار في الثوب لا تزال مشتعلة فيه وأنت تنضح على الثوب من النفط ساعة بعد ساعة يوشك اجمع ولا يصل الى داخل الثوب شيء ويلبسها الرجال اتقاء للنار في القتال، وقد استعملوا مثل هذه المواد في وقاية السفن فكانوا يطلونها بمادة تمنع احراقها وذكر ذلك ابن الاثير في وصف نوع من السفن يعرف بالشذاوات والواحدة شذاة فكانت تسقف بالاخشاب ويعمل عليها الحبس وتطلى بالادوية التي تمنع النار من احراقها ،ويرتب النفاطون داخلها يرمون بالنفط وتارة يرمون بالرصاص المذاب ولم يذكر ابن الاثير هذه المادة ولا تركيبها ولعلها من نوع ما ذكرهُ ابن منكلي في هذه الثياب. وكذلك كانت لهم نار تشتعل فوق الماء : — وتتخذ من شحم كلاب البحر والزفت والكبريت والراتينج وغيرها على مقادير محدودة ذكرها ابن منكلي في كتابه فتشتعل اذا اشعلت وتظل يومها وليلتها لا تنطفئ

ولا يتسرب الظن الى القارىء فيما وصفت فان اولئك الذين حدثت عنهم واحتلت على كتبهم اما صناع أسلحة يباشرون بانفسهم ما يصفون باقلامهم كالزردكاش صاحب كتاب الانيق او مقدمو أجناد يعانون استخدام هذه الآلات والاشراف على استعمالها كابن منكلي صاحب الاحكام الملوكية. ولم يكن لهم كبير معرفة بالكتابة وتنميق العبارة كما ترى ذلك في اسلوب كتبهم العامي وسذاجته ، وفي اطلاق الكلمات الاصطلاحية غير العربية واللحن الفاشي في عباراتهم فليسوا شعراء ولا وصّافاً خياليين

وهذا قليل جدًّا من كثير لا تعرف قدرهُ الا ان رد الله علينا ما ضاع وفقد من آثار آبائنا ومؤلفاتهم وانهُ ليدهشنا خبر هذا القليل ووصفهُ ، فهل يحرك ذلك اريحية خلفاء هؤلاء الاجداد فينهضوا لبناء مجد علمي واستقلال قوي وحرية صحيحة . اللهم فاستجب

امين الخولي

المدرس بمدرسة القضاء الشرعي